حرب لبنان وقوى السلام الإسرائيلية

علَّ إسرائيل تتعلّم الدرس!

. جوئل بينين * .

مَنْ يَذْكر حربَ إسرائيل على لبنان عام ١٩٨٢ سيَذْكر أوجُهَ شَبهٍ كثيرةً مع حربها عام ٢٠٠٦: من الاعتداءات الوحشية ضدّ المدنيين؛ والتدمير الواسع للمنازل والبنى التحتية المدنية؛ والقصفِ الجويّ العشوائي؛ واستخدام القنابل العنقودية المحرَّمة دولياً، إلى آخره. ولكنْ كانت هناك أيضًا معارضةٌ يهودية - إسرائيلية للحربيْن كلتيْهما. في العام ١٩٨٢ صارت تلك المعارضة ضخمةً واخترقتْ ساحةَ القوى السائدة، أما في سنة ٢٠٠٦ فقد بقيت المعارضةُ هامشيةً رغم ثباتِها وكفاحيّتها.

في اليوم الأول من الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، تجمَّع حوالى ٢٠٠ محتجّ للتعبير عن معارضتهم. وخلال أسابيع وصل عددُهم إلى عشرة آلاف. كانت تلك التظاهرات المبكّرة من تنظيم إسرائيليين راديكاليين، كثيرٌ منهم غيرُ صهاينة. وفي أعقاب مجزرة صبرا وشاتيلا في ٢٥ أيلول (سبتمبر) تظاهرَ مئاتُ الآلاف في تل أبيب مطالبين باستقالة رئيس الوزراء مناحيم بيغن ووزير الدفاع آرييل شارون، وبإنشاء لجنة قضائية للتحقيق في المجزرة. معظم المتظاهرين آنذاك كانوا يَعْتبرون أنفسَهم صهاينةً، وكان كثيرون منهم أنصارًا لحركة «السلام الآن» - وهي أكبر منظمة صهيونية مؤيِّدة للسلام.

خَلصتْ لجنةُ التحقيق، برئاسة رئيس المحكمة الإسرائيلية العليا إسحاق كاهان، إلى أنّ شارون «تجاهَلَ خطرَ أعمال الثأر وسَفْكِ الدماء من طرف الكتائبيين ضدّ سكّان مخيّمات اللاجئين،» وأوْصت باستقالته أو بأن يَعْمدَ رئيسُ الوزراء إلى صرفه. هذا وقد قُتِل أحدُ نشطاء السلام، واسمُه إميل غرونزڤايغ، على يدِ متطرّفٍ يميني، حين كان الأول يغادر تظاهرةً تطالب بتنفيذ قرارات لجنة التحقيق.

وبالمثل فقد تظاهر ٢٠٠ شخص في تل أبيب احتجاجًا على قصف لبنان، وذلك بعد ساعات من بدئه في ١٣ تموز (يوليو) ٢٠٠٦ وبعد أربعة أيام سار ما بين ٦٠٠ إلى ٨٠٠ شخص عبر شوارع تل أبيب يهتفون ضدّ الحرب. وفي ٢٢ تموز، طالب ٢٠٠٠ شخص، من بينهم عددٌ كبيرٌ من مواطني إسرائيل الفلسطينيين العرب المنظَّمين من قبل «الجبهة الديموقراطية للسلام والمساواة» و«التجمّع الوطني الديموقراطي،» بإنهاء الهجوم على لبنان. وقد استنكرتْ هذه المظاهرةُ بشكلٍ صريح سياسةَ جورج دبليو بوش «الشرق الأوسط الأكبر.» وطالب المتظاهرون باستقالة رئيس الوزراء ووزير الدفاع وهَتَفوا: «لن نَقْتل، لن نموت باسم الصهيونية» و«لن نموت ولن نَقتل خدمةً للولايات المتحدة.» وفي ٥ آب (أغسطس) تظاهرَ ائتلافٌ مكوّن من عدّة آلاف من الصهاينة وغير الصهاينة في تل أبيب، بمن فيهم أعضاءٌ سابقون في حزب ميريتس الليبرالي الصهيوني: موسي راز، ونعومي هازان، ويائيل دايان

كان «ائتلافُ النساء من أجل السلام» قوةً بارزةً وديناميكيةً في مواجهة الحرب هذا العام. وعلاوة على تنظيم تظاهرة من ١٠٠٠ شخص في ٢٩ تموز (يوليو)، أَوردتْ خلود بدوي (وهي مواطنة فلسطينية عربية في إسرائيل) ويانا كنوپوڤا (وهي مهاجرة أوكرانية يهودية) نبأَ خروج أكثر من دزينة من المظاهرات المعادية للحرب واعتصامات لإضاءة الشموع، بقيادة نساء إسرائيليات وقد أَلْهمتْ أعمالُهنّ احتجاجاتٍ عالميةً، نَظَّمتْ كثيرًا منها مجموعاتٌ يهوديةٌ، في حوالى ٦٠ مدينةً في العالم. وفي إحدى هذه التظاهرات، في سان فرانسيسكو تحديدًا، تمّ توقيفُ هنري بيشيوتو (وهو يهودي من أصلٍ لبناني ورئيسُ هيئة «الصوت اليهودي من أجل السلام» - وهي

---

* - Joel Beinin التاريخ ومدير الدراسات الشرق أوسطية في الجامعة الأميركية بالقاهرة وهذا المقال مكتوبٌ خصّيصًا لـ الآداب

المعارضة الإسرائيلية لحرب عام ١٩٨٢ كانت ضخمة، ولكنّها بقيت هامشية عام ٢٠٠٦.

منظمة أميركية من ٢٠ ألف عضو ونصير)[١] و١٦ آخرين.

أثناء الحرب الأخيرة سُجن ضابطٌ إسرائيلي لرفضه الذهابَ إلى لبنان. وسُجن ثلاثة آخرون لرفضهم أداءَ الخدمة العسكرية في الضفة الغربية. وثمة آخرون تهرّبوا من الخدمة من دون أن توجَّه إليهم التّهمُ في المحاكم العسكرية وقد أبلغ يوناتان شابيرو، وهو ربّانُ هيليكوبتر صُرف من احتياطيّ القوات الجوية بعد أن رَفَضَ الخدمة في الضفة الغربية وغزة، **الأوبزرڤير** اللندنية أنّه تحدّث إلى عدّة ربابنة طائرات F-16 ممّن تعمّدوا أن يخطئوا أهدافهم في لبنان لأنّهم خافوا من وجود مدنيين!

لكنْ خلافًا لسنة ١٩٨٢، لم تصبح حركةُ السلام الإسرائيلية ظاهرةً جماهيريةً عامَ ٢٠٠٦. فما هو تفسير ذلك الخلاف؟ أحدُ عناصر التفسير هو أنّ تدمير إسرائيل للبنان اليوم حظي بتنسيقٍ ودعمٍ غيرِ محدود من الولايات المتحدة، في حين وقفتْ أوروبا خاملةً جانبًا. أما العنصر الثاني فهو طبيعة قوى السلام الإسرائيلية

فبعض اليهود الإسرائيليين ينتقدون حكومتَهم على نحوٍ ثابت، ويسعون إلى السلام والتسوية مع الفلسطينيين ومع جيرانهم العرب. غير أنّ نقد النزعة العسكرية الإسرائيلية كان هامشيّاً، من الناحية السياسية، حتى سنة ١٩٨٢. وحركةُ السلام، التي انبثقتْ ردّاً على غزو لبنان آنذاك، استجمعتْ قواها وبلغتْ ذروتَها أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧ ـ ١٩٩١) فخلال ذلك العقد (١٩٨٢ ـ ١٩٩١) رفض مئاتٌ من الجنود والضبّاط أن يَخْدموا في لبنان أو الأراضي الفلسطينية المحتلّة عامَ ١٩٦٧، وبعضُهم خَضَعَ لأحكام سجنٍ متلاحقة. وشملتْ نشاطاتُ التضامن مع الشعبيْن اللبناني والفلسطيني اجتماعاتٍ قام بها إسرائيليون مع ممثّلين رسميين عن منظمة التحرير الفلسطينية، وكانت تلك الاجتماعات مخالفةً للقانون الإسرائيلي آنذاك

أصبحتْ حركةُ السلام الإسرائيلية ظاهرةً جماهيريةً في الثمانينيات لأنّ كثيرًا من الإسرائيليين الذين اعتَبروا أنفسَهم صهاينةً صَدَمَتْهم تجاوزاتُ حكومتهم الإجراميةُ في لبنان والأراضي الفلسطينية المحتلّة عام ٦٧ ولما كانت حربُ لبنان الأولى (١٩٨٢) من تنفيذ حكومةٍ ليكوديةٍ بزعامةِ مناحيم بيغن، فقد اعتقد عدد كبير من الصهاينة العمّاليين ـ مثل أعضاء الكيبوتزات ونقابات العمّال، ومعظم طبقة الأنتلجنسيا والحركة النسائية، وغيرهم ـ أنّ تلك الحرب لم تكن حربَ «هُمْ.» ومن ثم كان في مقدورهم أنْ يعارضوها من دون أن يَطْرحوا أسئلةً جوهرية، رغم أنّ أعمالاً جذريةً من قبيل رفضِ الخدمة العسكرية تحدّت الموقعَ المركزيَّ الذي يحتلّه الجيشُ في المجتمع والثقافة والسياسة الإسرائيلية

دَفعتْ معارضةُ الحرب الإسرائيلية على لبنان عام ١٩٨٢ عدةَ ناشطي سلام صهاينة إلى الدعوة إلى التفاوض مع منظمة التحرير، وإلى إنشاء دولة فلسطينية في الضفة وغزة، وإلى انسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان. وسعوا إلى معاهدات سلام تَضْمن الاعترافَ بإسرائيل وأمنِ إسرائيل، مقابلَ انسحاب إسرائيلي من الأراضي العربية المحتلّة. لكنّهم لم يَفْهموا أنّ معاهدة السلام مع مصر عام ١٩٧٩ لم تكن مقبولةً من العالم العربي لأنّها تجاهلت المسألةَ الفلسطينية وسَهّلتْ غزوَ لبنان عام ١٩٨٢. وإذ شَعر هؤلاء الإسرائيليون بالخيبة من الردّ الشعبي المصري والعربي على المعاهدة مع مصر، فقد تبنّوا مفهومًا للسلام تعيش إسرائيلُ بموجبه منفصلةً عن جيرانها

١ ـ .www.jewishvoiceforpeace.org

العرب وداخل عالمها الأوروبي «نحن هنا، هم هناك،» على ما قاله رئيسا وزراء إسرائيل إسحاق رابين وإيهود باراك بخصوص الفلسطينيين

عند توقيع إسرائيل ومنظمة التحرير «إعلانَ المبادئ» في أوسلو عامَ ١٩٩٣ غمرَتْ مشاعرُ الفرح قوى السلام الصهيونية، مع أنّ هذا الاتفاق الجديد لم يتضمن إنشاءَ دولة فلسطينية ولا الانسحابَ الإسرائيلي الكامل من المناطق المحتلّة عامَ ١٩٦٧. ونادرًا ما أشارت قوى السلام تلك إلى أنّ عدد المستوطنين الإسرائيليين في الضفة وقطاع غزة والقدس الشرقية قد زاد أثناء التسعينات أكثرَ من ٧٠ في المئة. قلّةٌ من قوى السلام، باستثناء الفريق المسمّى Checkpoint watch، راقبتْ حواجزَ التفتيش الإسرائيلية الكثيرة التي أُنشئتْ بعد سنة ١٩٩١ وأَخضعتِ الفلسطينيين إلى إذلالٍ يومي وتعويقٍ يومي للنشاط الاقتصادي. وبسبب هذه الحواجز بشكل كبير، لم تكن ثمة «حصّةٌ من السلام» للفلسطينيين في الضفة وغزة، بل تدهور مستوى معيشتهم.

لم يكن معسكرُ السلام الصهيوني يعتقد بوجودِ إشكاليةٍ في أن تُرجأَ إلى «المرحلة النهائية» من المفاوضات مسائلُ من قبيل: مدى الانسحاب الإسرائيلي من الضفة والقطاع، والهويةِ السياسية للكيان الفلسطيني المزمع إنشاؤه في الأراضي التي تنسحب منها إسرائيل، ومستقبلِ المستوطنات الإسرائيلية والمستوطنين الإسرائيليين، ووضع القدس، وقضيةِ اللاجئين. بل إنّ كثيرًا في ذلك المعسكر آمنوا أنّ منظمة التحرير ستتخلّى في النهاية عن قضية اللاجئين برمّتها لأنّ إسرائيل لم توافق قطّ (إلاّ في فترة قصيرة أثناء محادثات رودس عام ١٩٤٩) على عودة أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين. ومن ثم استغربتْ قوى السلام الإسرائيلية واغتاظت من رفضِ ياسر عرفات لشروط السلام التي عرضها إيهود باراك في قمة كامب دايڤيد في تموز (يوليو) ٢٠٠٠. بل ذهبتْ تلك القوى إلى أن تحتضن، وعلى نحوٍ لانقديٍّ، حملةَ البروپاغندا الإسرائيلية التي كانت تصوِّر الفلسطينيين وهم يواجهون عَرْضَ باراك «السخيَّ» بالعنف ورغم كل البراهين المعاكسة لتصوُّراتهم فقد اعتقدت تلك القوى أنّ ياسر عرفات لم يَنْوِ أبدًا توقيعَ معاهدة سلام مع إسرائيل ولم يكن «شريكًا في السلام.» وانطبق الأمرُ بصورةٍ أكبر على موقف تلك القوى من حركة «حماس» ونسيتْ قوى السَلام الصهيونية أنّ إسرائيل رفضت التفاوضَ مع أبو مازن، رغم أنّ إسرائيل والولايات المتحدة أبدتا استحسانَهما لأن يكون خليفةً لعرفات في رئاسة السلطة الفلسطينية

وهكذا وصل أكثرُ العناصر الصهيونية في حركة السلام الإسرائيلية إلى حرب لبنان عام ٢٠٠٦ وهم في حال من قِصَر النظر وفقدانِ الذاكرة التاريخية. لقد أخافتْهم صواريخُ صدّام حسين (الـ «سكود») أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١، والانتفاضةُ الثانية، وانتصارُ «حماس» في انتخابات كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٦، ودفعتْهم إلى قبول تكتيكات الجيش الإسرائيلي الإجرامية التي كانوا سيدينونها في السابق ولذا كانت إسرائيل خلال الشهر الأول من حرب لبنان عام ٢٠٠٦ أكثرَ توحُّدًا من أيّ وقتٍ منذ الحرب العربية ـ الإسرائيلية عامَ ١٩٧٣

دعمت الشخصياتُ والمنظماتُ البارزة في حركة السلام الصهيونية الهجومَ على لبنان وفي اجتماع لـ «حركة السلام الآن» في ٢٤ تموز (يوليو) رفَضَ قادةُ الحركة اقتراحًا بالمطالبة بوقف النار، وكانت حجّتُهم أنّ أنصارَ الحركة لن يَفْهموا ذلك الموقفَ وأنّ وقف إطلاق النار قد يساعد حزبَ اللّه وفي ٦ آب (أغسطس)، بعد أن اتّضح أنّ أهداف الحرب الإسرائيلية لن يُمْكن تحقيقُها بسهولة، طالب ثلاثةُ روائيين صهاينة بارزين سبق أنْ أيّدوا الحربَ بوقف إطلاق النار ــ وهؤلاء هم: عاموس عوز، وا. ب يهوشوا، ودايڤيد غروسمان

. جـــــــوئـل بـيـنـين .

كان يمكن استعادة الأسيرين دون إطلاق رصاصة واحدة، لكنّ الهدف من الحرب هو ترميم «قوة الردع» الإسرائيلية.

تجاهَلَ بعضُ نشطاء «حركة السلام الآن» وحزب ميريتس قادَتَهم، ودعوا إلى «مظاهرة صهيونية» للمطالبة بوقف إطلاق النار في ١١ آب. ولم يتبنّ «القادةُ» هذه المطالبةَ إلاّ بعد أن أشرفت الحربُ على نهايتها. ووردتْ تقاريرُ واسعة الانتشار عن هجوم بري كبير للوصول إلى نهر الليطاني، فانتعشتْ قوى السلام الصهيونية، ورفضتْ تلك الخطة واصفةً إيّاها بأنّها مناورة من قِبل القيادة العليا للجيش من أجل إعطاءِ انطباعٍ كاذبٍ بالنصر.

لماذا رفض قادةُ حركة السلام الصهيونية معارضةَ حربٍ غير ضرورية على الإطلاق؟ لقد كان سهلاً فعلاً معارضةُ مثل هذا الهجوم الشرير الموجّه أساسًا ضدّ المدنيين اللبنانيين، والذي كان مخطّطًا له قبل شهور من أَسْرِ حزب الله جنديّيْن إسرائيليّيْن وقتل ٨ آخرين في ١٢ تموز ٢٠٠٦. وكان ممكنًا فعلاً استعادةُ الأسيريْن من خلال تبادلٍ للأسرى بين الطرفيْن من دون إطلاق رصاصة واحدة. غير أنّ هدف الحرب كان حَرْبَوِيّاً: ترميم قوة الردع الإسرائيلية.

إنّ تفسير ذلك يَكْمن في الطبيعة الفريدة لحركة السلام الإسرائيلية. إذ يُشاطر العناصرُ اللاصهاينةُ القيمَ المشتركةَ للحركات التقدُّمية في العالم. أما العناصر الصهيونية فهم دومًا عالقون في تناقض: بين أن يُثْبتوا ولاءهم ووطنيّتَهم الإسرائيلية، وبين ضميرهم الإنساني الذي يتمرّد على الأعمال المروِّعة التي تنفذّها حكومتُهم. إنّهم فخورون بأداء الخدمة في الجيش، ولاسيّما كضبّاط في وحدات النخبة القتالية. ويَصْعب عليهم كثيرًا أن يصدّقوا أن القيادة العليا للجيش، وكثيرًا من الضبّاط السياسيين المتقاعدين، وغيرَهم ممّن يرون العالمَ من خلال فوهة بندقية، لا يُقيمون أيَّ اعتبار للأرواح العربية ولا اعتبارًا أفضلَ كثيرًا للأرواحِ اليهودية نفسها. وهم يعادون الحروبَ في المبدإ، وكثير منهم قد يدرك أنّ القوة لن توفّر لإسرائيل الأمانَ ولن تحلّ صراعاتِها مع جيرانها. غير أنّهم يفتقرون إلى الشجاعة السياسية والأخلاقية لمعارضة الحرب أثناء حصولها.

إنّ إسرائيل تواجه أزمةً متعددةَ الأبعاد. فقد هبطتْ شعبيةُ رئيس الوزراء إيهود أولمرت بشكلٍ حادّ. وفقدت القيادةُ العليا للجيش سمعتَها بسبب فشلها العسكري المتكرِّر. وهاجمتْ وسائلُ الإعلان رئيسَ الأركان دان حالوتس لبيعه ما قيمتُه ٢٨ ألف دولار من الأسهم ٣ ساعات فقط بعد أَسْرِ الجنديّيْن الإسرائيليّيْن في ١٢ تموز، وتعرَّضَ لضغوطٍ من أجل دفعه إلى الاستقالة. وماتت خطةُ أولمرت لإعادة انتشار إسرائيلية أحادية في الضفة الغربية. والأرجح أن تكون أيامُ حكومته معدودة، ويَغْلب الظنّ أن يُعانيَ حزبُه (كاديما) هبوطًا حادّاً لأنّه ليس لديه برنامج غير إعادة الانتشار تلك.

إنّ الرابطة الحميمة بين حركة السلام الصهيونية والجيش الإسرائيلي، على كونها مقزِّزة سياسيّاً وأخلاقيّاً، تعطي أملاً بسيطًا بأنّ الحرب الأخيرة قد تؤدِّي إلى تغيير سياسي إيجابي في إسرائيل. إنّ فشلَ إسرائيل العسكري في حربها مع العرب عام ١٩٧٣ كَسَرَ حرمَ (تابو) نقدِ الجيش، وأعاد رسمَ الخارطة السياسية، وكرّس أسسَ حركة سلام جماهيرية بعد عقد. ولقد فشلتْ هذه الحركة في مواجهة تحدِّي الانتفاضة الثانية وحرب لبنان عام ٢٠٠٦. إنّ ربع قرنٍ من التجربة قد يُنْتج حصيلةً أفضل أو يثبت الانحلالَ التامّ للمجتمع الإسرائيلي. وفي الحاليْن فإنّ ذلك لا يقدِّم إلاّ عزاءً بسيطًا فحسب إلى الشعب اللبناني الذي دَفَعَ ثمنًا هائلاً من أرواح بشره ودمار مجتمعه وتحطُّم بناه التحتية، علّ إسرائيل تتعلّم الدرسَ.

القاهرة